عين من الجحيم

اسم الرواية : **عين من الجحيم** .

اسم المؤلف: **أحمد ناجى**.

تدقيق لغوي: **دعاء فرج** .

تصميم الغلاف: **محمد الشحات**.

إخراج داخلي: **ساندي شريف إبراهيم**.

رقم الإيداع : 2021/2290

الترقيم الدولي: 978-977-844-107-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر اى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمسائلة القانونية والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

إبهار
للنشر و التوزيع

Email ebharpuplishing@gmail.com

تليفون: ٠١٠٦٠٢٦٧٤٠١

أحمد ناجى

عين من الجحيم

إهداء

شكرًا لك أبي،

شكرًا لأنك علمتني ما معنى كلمة "أب"، شكرًا ناجي حسن

"المقدمة"

تلك قصتي، هذا أنا وذلك هو القدر، أحيانًا تجد نعاج رضع وجدوا على الأرض ليرثوا الملك من آبائهم الأمراء والملوك، وهناك أشبال ولدوا ليغيروا العالم، وهناك من صاغهم القدر في قصة حزينة ليرثوا الكره والألم.

أحيانًا أتمادى في التفكير، لم أتخلَ قط عن مبادئي ومعتقداتي، في الغالب أتخلى عن أفكاري الراكدة بعقلي، أحاول الهروب من صخب يتأجج به.

حتى في الطفولة المشرقة كنت أتأرجح في الظلام بين التنمر والشجارات الأسرية، تبًا لتلك الأيام العبثية، لم أكن أعلم هل أنا من يلعب في الوحل أم الوحل هو من يعبث بحياتي؟

أحمد ناجي

-١-

يقول باسكال تعاسة الإنسان تكمن في عدم قدرته على السكون، سحقًا لك باسكال، يبدو أنك قد انشغلت بتجاربك الفيزيائية على السوائل كما تدَّعي، ولم تجرب يومًا النوم داخل تابوت من الماء البارد، أظن أنه صُمِم خصيصًا لتحنيط آلام الجسد.

لا يبدو أنه يخفف أية آلام البتَّة، حتى تلك الكدمات الزرقاء مازال التباين بينها وبين جسدي الأبيض الهزيل واضحًا بطريقة مرعبة.

على الأقل بعض من الماء البارد قد يحافظ على برودة أعصابي، فلا أظن حقًا أن جسدي قد يتحمل تجربة أخرى، مع الانهيار العصبي للمرة الثالثة على التوالي هذا الأسبوع.

التقطت شهيق طويل يكفي لملئ ضلوعي الهزيلة بمئونة من الهواء، تكفيني لرحلة قصيرة مع الصمت التام تحت الماء.

ثانية من الصمت كسنين طويلة لا تحصيها تلك الحسبة الحمقاء للوقت، الوقت هنا ليس بالساعة، واليوم ليس بإشراقة شمس وغروبها، الوقت هنا بقيمته المطلقة ومتعته الخاصة.

أتمنى أن لا تراودني من الذكريات ما قد يعكر صفوي!

-٢-

- قبل أكثر من سبع عشرة سنة.

يجلس سامي وحيدًا، بعيدًا عن الرفاق وبهجتهم وضحكاتهم وصراخهم العالي، يجلس عالقًا بأرجوحته الساكنة بين الحزن والبكاء حبيس صدره.

صراخ الأب العبثي ونظرات كرهه وضجره غير المبرر تجاه سامي وعينيه البريئتين،

تتباعد شفتاه بخوف مستعدًا للانفجار بالبكاء في أي لحظة، تتسع عيناه بتوتر بينما تتحرك مقلتيه يمينًا ويسارًا كأنها تفتقد شيئًا ما، شيء لم تستطع إيجاده، يبحث قلب الطفل عن الأمان قبل عينيه، حضن يرتمي به، كلمات مثل: "لا بأس يا طفلي أنت بأمان، كلنا معك".

منظر أمه الملقاه على الأرض لا يفارقه، وهى تحاول النهوض، يبدو أن الألم وكسرة القلب قد غلبها، عجبًا لكونها مازالت حية، تلتقط أنفاسها

حتى الآن بعد كل تلك القبضات والركلات، التي التقطتها في كل سنتيمتر في جسدها من طغيان رجل لا يعرف الرحمة.

الأب بسخرية: حقوق أيه يا أم حقوق، إنتي هنا خدامة، تقولي حاضر وبس من غير نقاش، ومسمعلكيش حس في البيت دا طول ما أنا موجود، قومي حضريلي الطفح علشان جعان!

الأم بكسرة وصوت مبحوح : روح العب عند خالتك شوية يا سامي، روح يا قلبي.

***

ذكريات تتخبط وتتناثر شظاياها تحت قدمي الطفل الرقيقة: سامي تعالى العب معانا.

ابتسامة طفولية وبهجة غير مبررة، وأنامل دقيقة تحلق في الهواء من بعيد،

طفلة كملاك ضاع في الأرض، تجري نحو سامي بينما لا يكاد العشب يتهشم أسفل قدميها الخفيفتين، كأنها ريشة تطفو في الهواء، وجنتيها المحمرتين تلمعان من بعيد،

عيني سامي تتلصصان عليها بلطف وخجل، كأنه كان ينتظر تلك البهجة منذ وقت، حب الطفولة البريء المجرد من أي مصالح أو انجذابات جسدية: مالك؟

تحادثه بثقة بينما تحاول إزاحة بعض الأتربة عن ثيابه، التي تبدو أنها تهالكت من ركضه بعنف؛ هروبًا من أحد وحوش الغابة.

تتابع: ليه مش بتلعب معانا؟

يرمقها سامي بصمت، يردف بحزن: مش عايز ألعب.

أنت مش عايز تعمل حاجة خالص!

تردف بعبث بينما تنظر معه نحو السماء وتتسلل أناملهما الصغيرة لتتشابك خوفًا من الضياع في هذا العالم القاسي والغريب.

-٣-

كالعادة يوم آخر وأمل كاذب، ونقصان رقم من عداد شبابي وعمري البائس.

الساعة التاسعة تدق بابي بدون انقطاع، كأنه صدر توًا أمر اعتقالي كقاتل هارب، على الأقل القاتل يعلم ذنبه وسبب عقابه، يرى ويعلم نهايته في آخر الطريق، أما أنا فلا.

- اصحى يا سامي، هتتأخر على الجامعة

جملة الصباح المقدسة، حقًا لا أعلم ما مشكلة تلك الفتاة، لم تسأم من ترديد نفس ذات الجملة كل صباح طيلة السنتين المنصرمتين، منذ أن أخذت أغبى قرار في حياتي والتحقت بالجامعة.

في كل الأحوال لن يكف نقار الخشب هذا عن تمزيق بابي بمنقاره، الذي يتدخل في كل شيء في حياتي.

لم أكَد أفتح الباب حتى شعرت بريح خفيفة تتجاوزني.

– صباح الخير، قالتها بطفولية بعد أن استقرت في أحد أرجاء صالتي الضيقة بمساحتها، والأكثر من ذلك فوضويتها العارمة.

أغلقت الباب بهدوء واستدرت لأكتشف أن مساحتي الخاصة اغتصبت توًا وأُعيد رسم حدودها، قبضتي تعتصر نفسها بغضب أحاول جاهدًا السيطرة عليه.

بهدوء شديد دون أن ألاحظ ذلك ارتخت يدي واختفى غضبي، بعد رؤيتي لمشهد دومًا ما ينجح في أن ينسيني نفسي للحظات، لحظات من الشرود ضبابي المعالم.

شباك زجاجي واسع، قد ترى من خلاله أفضل مشهد قد تراه في حياتك.

مشهد تدفع له آلاف الدولارات في أبراج بابل الحديثة المشيدة بحرفية في دبي، في النهاية لن تحصل على القليل من روعته،

فما الذي قد يغنيك عن شتاء ورفيقة البحر مجتمعين في عروس البحر المتوسط (الإسكندرية)

ولك أن تضيف للمشهد أنثى من الجنة تترنح للأمام والخلف مع الكرسي، مطلقة السراح لشعرها الحريري الأسود للتراقص بخصلاته في الهواء.

على هذا النغم السحري لتموجات البحر، وضرب الطبول بإيقاع ثابت على رمال الشاطئ الناعم، صوت بعيد نسبيًا لكنك لا تسمع غيره ويظل يرن في عقلك، حتى يبتلع عقلك البحر ويتشى لك الشعور ببرودة الماء في قدميك.

- أكيد مش هتسبني مستنية كده كتير في الوضع الشتوي الكئيب دا، كدا مش هنلحق ولا محاضرة.

قذفتني فجأة بكلامها مع استدارتها نحوي، وتطاير بعض من حريرها اللامع في الهواء، ليستقر في الضفة الثانية من وجهها،

حتى مع كل ما تحاول اصطناعه من جدية، فهذا لا يخفي شيئًا من جمالها، وسحر غمازاتها بالظهور والتألق، فمنذ متى والبحر يستطيع إخفاء غمازاته الساحرة في إحدى الليالي الهادئة تحت خفقات القمر؟

- أنت يا أستاذ؟!

- ترمقني بنظرتها التي اخترقت قلبي دون سابق إنذار.

تعويذة من نوع خاص، كأنها همسات الشيطان المغرية، حتى لو كانت الشيطان، فأنا اللعنة التي أخرجت إبليس من الجنة، تبًا لذلك.

مازالت تنتظر بترقب أول موجة تدفعها للشاطئ.

الصمت إجابتي، بل دائمًا ما كان كذلك، انسحبت بهدوء بعينين باردتين، تركت بسمة سلمى وضحكتها الصامتة ترمقني من الخلف، حقًا لا أستطيع فهم تلك الفتاة، وما لا أستطيع فهمه حقًا هو سحرها الخاص، الذي لا يغلبه شيء في التخفيف من آلامي.

مشاعري مضطربة، جرب أن تلطخ منديل بالحبر وتعبث به في أوراقك البيضاء، وعندها قد تفهم ما أقصد.

لا أنكر أن هذا الجنون في عقلي بدأ يروق لي بالفعل.

دقائق قليلة كانت كافية لانزلاقي بسرعة في ملابسي البسيطة، دعنا لا نتحدث عن تناسقها وجاذبيتها، فبالكاد هي نظيفة.

عندما أراها لا أرى إلا زهرة الحياة، زهرة من الجنة تعبث في الجحيم، لا أحترم القدر حينما يتلاعب بالبراءة، سلمى رواية بعنوان "براءة وردة في أرض النار"

دقات الساعة في اللحظات الأخيرة من المباراة، تتلاعب بي على وتر القلق بلطف يتناسب مع نعومة أناملها،

عدة دقائق فقط وكنت سجين الملل، شارد في الخشب العتيق لمدرجات القاعة، لا أبالي بالقليل من صدى الصوت المتراقص قرب أذني.

كل ما كان يشغل بالي طيلة المحاضرة هى تلك المنحنيات الصلبة، التي تسلقت وجه العجوز اليائس، يكاد لا يتناقض لون بشرته مع السبورة العتمة خلفه، تسلقته التجاعيد ببرود يوم خلف آخر طيلة السنوات الطويلة الماضية.

***

-سلمى-

حاسة من كتر ما بيقعد سارح كدا في اللاشيء، إن اللاشيء نفسه بيسرح فيه، بحس كدا البرود والصمت ليه طعم مختلف معاه.

خليك أنت كدا سارح في الولا حاجة، وأنا سارحة فيك! غباء عارفة، بس لو كان الغباء فيه المتعة دي فأنا بلعن غبائي من النهاردة؛ لأنه حرمني من كل دا.

مش فاهمة أي المتعة من البرود الأوفر دا... من الصمت والسكون الممل بغباء، لو اتكلمنا عن متعتي أنا الشخصية فدي من أحلى اللحظات في حياتي "لوحة مجسدة ثلاثية الأبعاد" تقريبًا كده أن داخلة هندسة علشان اللوحة دي وبس، أحلى لوحة وأجمل تفاصيل، أحد إبداعات دافنشي.

***

أستاذ سامي، عبقري زمانك، لو مش معانا فأكيد أنت مع الناس اللي هناك، يا ريت تاخد بعضك أنت والناس اللي معاك ومش معانا وتتفضل معاهم بره.

قذف كلمات متلاحقة، وليدة زواج غير شرعي من إحدى عاهرات التنمر وسوء التعامل

عيناي لا تفارقانه، بسمة ساخرة تعلو شفتي، عيني مازالت ترمق مقلته القذرة بكل برود، مع كل خطوة وجرة قدم على بلاط القاعة؛ لم أتوقع يومًا أن بضع ذرات من الغبار تحتك بلين بين جسمين قد تصنع هذا التوتر.

اللحظات تمر ببطء، أشعر برغبة جامحة في قتله والتلذذ بلعق دماءه المتسللة من عنقه، بعد أن أفصلها عن جسده.

أشعر بمتعة غامرة في برودي وبنشوة تفوق أضعاف النشوة الجنسية، اونشوة إفراغ وجبة دسمة بعد مضي يوم كامل في عملية هضم متعسرة.

ما هي إلا لحظات حتى لحقتني رجلاي لخارج القاعة؛ لأجد الباب يلبي نداء نسيم الهواء ويغلق خلفي مباشرة، كانت انتفاضته عائدًا لمستقره، خاتمة جميلة لبداية رسوبي في المادة طيلة السنوات القادمة.

بضع خطوات مبتعدًا بها عن القاعة لم تكن كافية لترمي بي خارج مجال السمع،

ضجة متضاربة تعم المكان، مزيج غريب غير واضح كصوت تلفاز يصرخ، بعد أن ضاع الإرسال من يده.

لا يبدو أنني أمتلك ذرة تركيز أخرى لأفقدها على هذه التفاهات الجامعية المتكررة، رغبتي في النوم الآن تفوق الوصف، لا يعيق ثبات وبطئ خطواتي إلا يد سلمى، التي تشبثت بي فجأة وبكل هدوء، حتى مع هذه الرجفات والتوتر الذي يتخلل أعصابي، أشعر بقلبها ينتفض في يدي كلما اشتد اعتصار أناملها لي.

ماذا حدث؟ قلتها باهتمام وقلق.

أردفت بهدوء وابتسامة مصطنعة تواري قلق ما: لا شيء

كقاتل هارب اعتقل توًا، تقيدني سلمى من ذراعي كأنني في مرحلة ما سأركض هاربًا منها، مرات نادرة التي أرى سلمى فيها بتلك الحالة، تجاوزنا الطرقات ثلاثتنا حتى وصلنا لمنزلي، ودعنا الصمت بينما رحل في استحياء، ولم يبقَ إلا سلمى، أردفت محاولًا العبث بشرودة وإيقاظها من غفوتها: تصبحي على خير يا سلمى،

تنظر لي بأعين متسعة، كأنها تقول ماذا حدث، تُبادلني السلام بضم شفتيها ثم ترحل.

ما هي إلا خطوات أدفع فيها ألمي أمامي، وأجر ضجيج عقلي خلفي، حتى وصلت للسرير، أزيح كل ذلك جانبًا وألقى بجسدي على السرير،

ألم شديد يتسلل بهدوء لعيني ويعتصرها، لا يهمني كم مر من الوقت وكم سيمر، متى ستنتهي تلك الرواية الغامضة، ليتها فيلم فأحرق شريطه وأنهي تلك المهزلة.

-٤-

شفق،

بين خفقات القمر ونسيم الربيع الحر، والستار غير المستتر أمام مسرح القمر المتألق، وتراقص سنابل القمح الخضراء،

امتزاج مثالي بين الصوت والضوء.

ضوء القمر يغزو كل عتمة تقابله، كل الأجرام متوهجة متراصة، كأنها قلادة الإله، بدأ القمر بالتغير، قلَّ توهجه وحلت عليه لعنة شيطانية، رقعة حمراء تتوسط القلادة وتتركني في ذهول وفزع.

عروق عيني الجانبية تشد آزارها، تضغط بشدة على رأسي، غير مبالية بمدى قساوتها على جمجمتي الهشة.

أشعر بهذه الدماء المندفعة بعنف لعيناي المتسعتين، شعور دموي من نوع آخر،

رغم كل الألم الذي يعتصر عيني كانت ومازالت أبوابها متسعة، لهذا المنظر المهيب الذي سطع على السماء،

عيني كقمر منطفئ تمامًا، قمر بلا ضوء أو حياة، سلبت منه روحه وهجرته عروسه، عين لا ترى شيء سوى الفراغ، تنتظر شيء ما، شعلة بعيدة خافتة، تائهة وسط أمواج البحر،

ما سيحدث حقًا قد تأجج باقترابه، لن يتعدى انتظاره وترقبه أكثر من ذلك.

***

-إشراقة شمس جديدة لا يميزها شيء،

تجد بعض ذرات العرق المتسللة من جبيني، مستقرًا لها بين ثنايا وسادتي الجافة والمريحة لحد ما. لا يمكن أن تكون فرنسية الصنع كما ادَّعى صاحبها؟!

أشعر بكم هائل من الثقل يجتاح مؤخرة رأسي وعضلات جسدي كافة،

أناملي متحجرة، شرياني متهشمة.

طقطقات أصابعي بدأت تتزايد، مع كل محاولة فاشلة أحاول فيها أن أتحسس الكومود بجانبي، في محاولة بائسة لالتقاط هاتفي.

ليس بالشيء الهين أن أعيد عمل ضبط مصنع لبرمجة عقلي التي شلت لفترة لم أعلمها بعد

أين الهاتف اللعين؟!

حتى حنجرتي لم تستيقظ بعد مع هذه الزمجرات، صوت متقطع ونبرة صوت حالها لا يختلف كثيرًا عن حالي، متهالكة، أحاول الوصول للهاتف بأعين نصف مغلقة تحاول الفوز بجولة خاسرة مع النوم.

تلك بداية واحدة لكل شيء، انفجار لنشئة الكون، صرخة لانضمام أنامل هشة لقائمة حديثي الولادة.

صرخات عيني المستنجدة تدق الطبول في مؤخرة رأسي، صداع قاتل يتخللني.

أشعر بمقلتي المتحجرة تتوسط عيني التي بدأت تتسع ببطئ ومعاناة يرافقها الألم، يصيبني دوار وعدم اتزان غريب، كبوصلة فقدت توازنها وساقها الجنون، هذا الضياع الغريب عندما ينفصل الزمان عن المكان، لا أعرف أين أنا أو حتى المكان الذي يحمل لي ذكرى تلك الثواني.

رنات هاتفي المكتومة أنينها لا يختلف كثيرًا عن أنيني، صيحات مكتومة ترتجف لها أناملي.

١١:٠٠ صباحًا

رؤية ضبابية مشوشة لأعين سجين ترى النوم لأول مرة بعد أن أرهقها الظلام لسنوات بين أضلع السجن القاسي

سلمى؟!

قرأتها بصعوبة بعد أن استطعت جمع شتات رؤيتي المشوشة، بسمة واهنة وجدت طريقًا لها بين ثنايا وجهي المتهالكة، وكأني كنت أنتظر بشوق تلك اللحظة كما اعتدت انتظارها دائمًا.

بصعوبة استطعت السيطرة على رعشات يدي، والرد على المكالمة.

لم تكن إلا لحظات حتى تفلت الهاتف من يدي ليجد مستقره بجواري، على الأقل هو بقرب أذني.

سامي ليه مش بترد؟ دي المرة الألف اللي أرن عليك فيها، بجد قلقتني، إزاي مطلعتش من الشقة يوم كامل، معقولة نايم أربعة وعشرون ساعة بدون حس ولا خبر. أرجوك كفاياك تعب لأعصابي، مكنش هيبقى فيها حاجة لو بس رديت عليَّ من ورا الباب حتى لو بكلمة. تطمن قلبي بس، آه نسيت كبرياء حضرتك بيمنعك. المهم تبقى كويس وابقى طمني عليك، متردش يا سامي براحتك بس بكرة أبقى رد، وحاول تروح الجامعة معايا زي ما كنت بترافقني كل يوم للمدرسة.

أشعر بنغم صوتها يحنو على جبيني ويطبع على وجنتي، بصمات شفتيها بلونيهما القرمزي المثير.

أريد النهوض، نعم يجب علي فعلها، لكن تلك الرجفات تعتصر قلبي، ولا تعطيني أي فرصة لذلك.

وجدت يداي طريقها للحمام برغم كل خطوات قدمي المتعثرة، تقريبًا صنعت فوضى في طريقها تكفي لسد شارع عام، أثناء الثورة الفرنسية.

رؤيتي مازالت ضبابية، صفير ثاقب لا يفارق أذني، مازلت أسمع صوت الماء المتدفق ببرود من صنبور غزاه الشيب وغطاه الصدأ.

هل يعقل أن تكون برودة الماء هي سبب ارتجاف يداي؟ كفاني سخرية، فمنذ متى والماء البارد أحد مشكلاتي عند الاستحمام؟

لم تكن إلا لحظات حتى شعرت بكل ذرة ألم أعانيها تتضاعف وتصبح أشد، بعد أن استيقظت جميع أطرافي العصبية.

شهقة طويلة بالكاد استجمعت بها ما تبقى من روحي المتناثره حولي، تتناثر كما تناثرت قطرات الماء حولي بعد انتفاضي من البانيو.

أين أنا؟ كيف وصلت لهنا. وماذا كنت أفعل؟!

كلها أسئلة بدون إجابة كسؤال لماذا رذاذ الماء مازال عالقًا في الهواء؟ التفاتاتي سريعة ونظراتي أسرع، كأني أرى كل شيء في نفس ذات الوقت، وبدقة تفوق الوضوح بمراحل، كل شيء متوقف حتى الهواء، الذي كان يتسرب بهدوء من النافذة، وحتى أنفاسي لا أشعر بمداعبتها أنفي، ولا بدفئها في رئتي، كنت أظن أن تجربة إيقاف الزمن إحدى المستحيلات الكونية، دائمًا ما كان يسبق فضولي خطواتي، برغم كل الألم الذي يهتك بعظامي ويغرز أنيابه في قلبي كأفعى في لحظات نشوتها تجاه إحدى الفرائس الشهية.

قطرات الماء مازالت تتساقط بعفوية مني على جسدي العاري، أكاد أقسم أنها الشيء الوحيد الذي يتحرك في الكون تلك اللحظة بالإضافة لي، للحظة

خلت نفسي إحدى جبال الهيمالايا، وتلك السيول تجد طريقها للأسف عبري مرورًا بتقاسيم جسدي.

باب غرفتي العتيق موارب كالعادة، صوته اللزج الذي اعتدت عليه اختفى فجأة، ومع ذلك يصيبني التوتر الذي أحصل عليها منه، سحقًا للأشياء القديمة وللتوتر.

كانت المسافة التي يتسلل فيها الضوء للخارج كافية تمامًا لعبوري بهدوء، رنات عقارب الساعة تدق في أذني رغم أن العقارب متحجرة، يداي تتحسسان بحذر باب الغرفة الخشبي خشن الملمس.

أعد خطواتي بحذر خطوة خطوة، عيني مازالت شاردة في أرضية الغرفة بصمت وحذر شديد، وكأني خائف، أخشى أن أكون كذلك في نهاية الأمر،

أحسب إرتفاع برج إيفل في فرنسا بمسطرة، بينما أنجح في عد خطواتي التي سلكتها مرورًا بباب الغرفة حتى أوسطها، ثلاث خطوات فقط شعرت فيها أنني عبرت كوكب الأرض مشيًا.

أرجو أن تكون تلك المسافة الطويلة كافية لأستجمع فيها شجاعتي، وأرفع عيني تجاه أي شيء يعلو أرضية الغرفة.

أشعر بأنفاسه القريبة بل أسمعها جيدًا، فما الصعوبة التي قد تجدها في سماع عواء ذئب منتصف الليل وسط صحراء قد عمَّها السكون.

يبدو أن الذئب قد أرهقه الركض، مازالت أنفاسه دافئة وشهقاته مرتفعة، أشعر بلعابه الطازج ينزلق من على كتفي.

هذا البكاء والصرخات المكتومة ليست بالغريبة علي، دائمًا ما كانت يداي هي أداتي الوفية في كبت آهاتي وتضميد جروحي.

قولتلك كفاية، كفاية ارحمني!

لا، لست أنا من يتكلم.

نعم، هو صوتي، بالتأكيد صوتي لكن أقسم لك أنني لم أتفوه بأي كلمة.

من هذا؟ كلمات تجول في خاطري عالقة بحلقي، كلمات لا تجد أي طريق لخارج فمي، دموع دافئة تتسسلل من عيني ببطئ.

لا أجد سبب واحد يدفعني للبكاء، لكنها مجرد دموع لا أجد لنفسي أي سيطرة عليها، للحظة استجمعت رباطة جأشي.

- من أنت؟

صمت البكاء، هدأت شهقاته، أقصد شهقاتي... أقصد ... لا أعرف - لا أعرف حقًا ما المصطلح أو الضمير المناسب للتعبير عن نفسي، عندما أكون أمام نفسي ولا يفصلني عن نفسي إلا بضعة سنتيميترات.

توقفت دموعه عن الهطول وشهقاته عن الارتفاع، انتظمت أنفاسه ومرة أخرى أقول مرحبًا للصمت القاتل،

يداه المرتجفتان تحاول تجفيف دموعه، ابتعدت يداه عن وجهي، عيناه مغمضة وشكلي وأنا مغمض العينين بالضبط كما تخيلته دائمًا، مع أني لم أره ولو مرة واحدة.

فتح عينه وليته لم يفعل، المشهد مفزع بقدر ما قد يكون مثير، لم يكن مني إلا أن كسر اللوح الزجاجي، وأنهى هذه المهزلة بجرح في يدي.

قطعة صغيرة من القطن وشريط لاصق يستطيعان تضمين أي جرح، ليس لدى الكثير من الوقت لأهتم بتفاصيل غير مهمة، سلمى تنتظرني منذ وقت، وليس علي التأخر أكثر من ذلك، هذا اليوم والوقت بالتحديد لا أظنه قد يحتمل أي تأخير.

-٥-

هكذا أنت يا أبي منذ أن شهدتك عيني للوهلة الأولى لم تتغير، بشبابك منذ عرفتك، روحك تسكن قلبي، أنفاسك الهادئة تداعب أذني، مع كل همسة رياح أراك وأرى تفاصيلك في كل مكان حولي.

أسمع كلماتك من كل حكيم ورزين أقابله كأنه أنت، أنت الحكيم صاحب كل الحكم

أتحسس لحيتك التي جذبتها قبل رحيلك مباشرة، أشعر أن هذا يروق لك ويزيح القليل من ألم الوحدة، مازلت وستزال أبي، منارتي في عالم الأموات قبل الأحياء،

ارقد بسلام يا أبتي "أعطيت للموت حياة وتركتني بلا حياة"

أتحسس القبر بيدي بينما سامي يحاول ملامسة الهواء بعقله، حقًا يا سامي بدأ ينتابني القلق.

١٠:٠٠ م

العاشرة مساءً، الجو بارد على الأقل بالنسبة لسلمى التي أشعر برعشاتها في يدي، لا أعلم حقًا لماذا أرى القمر أحيانًا يهبط من على عرشه أعلى السماء؟ ليستقر بعينيها

كالعادة نفس المشهد والسيناريو المتكرر، أرى سلمى شخص آخر، شخص بعينين وشرود غريب يظهر، أراها ولمرة واحدة في السنة

تحاول خطواتها المتعثرة ملاحقة خطواتي بثبات، تشد على يدي بين الفينة والأخرى كأنها تحاول طمأنة نفسها، كأن قطرات المطر الشتوية المتساقطة بهدوء قد تغرقها

دقات، بل تسلسل منها، دقات المطر على الرصيف، ودقات قلبي، ودقات كعب حذاء سلمى الأسود.

ليلة سودة شكلها!

قاتلها سلمى بعبث محاولة قطع ذلك الصمت القاتل،

حقًا أستطيع تحمل أي شيء إلا تلك النظرات البريئة، بعينيها تنتظر مني أي كلمة

- اه فعلًا

أردفت بتوتر وبرود فما أصعب من تغيير عادة قد حقنت في عروقي من زمن، خاب أملها كالعادة، تتنهد بخيبة أمل واضحة بعد أن عم الصمت

الأرجاء، وبخاصة بعد انقطاع الأمطار بدات أسمع بوضوح تخبط الأفكار داخل عقلها.

ثم تكسر الصمت مرة أخرى مفاجأة إياي بكلامها.

- سامي: ممكن توعدني بحاجة؟ واعتبر دا أول وآخر حاجة أطلبها منك؟

تجمدت قدماي للحظة كما تجمد قلبي، نظرت إليها ولأول مرة بكل اهتمام وتركيز،

بدأت الثواني تمر ببطئ ومازال صمتي هو الجواب الوحيد، اعتبرت صمتي جوابًا وكما يقولون "السكوت علامة الرضى"

- أوعدني يا سامي إنك عمرك ما هتتخلى عني، إنك هتبقى جنبي دايمًا لحد آخر يوم في حياتي، بدأت دموعها تنسال من عيونها بهدوء محاولةً اللحاق بكلماتها.

- توعدني يا سامي، توعدني؟؟

اتسعت عيناها لدرجة قد تثير الرعب في نفسي، لكنها في النهاية عين غزال بريء

- أوعدك... أوعدك يا سلمى.

سلمى – أحد الأيام الحزينة – الاثنين

رسايلي الصامتة لك يا سامي معدتش بتوصل زي الأول، نفد صبري يا سامي صدقني، كل اللي بتمناه في حياتي أن يجي يوم وتفهم مشاعري، تعرف يا سامي إني...

عارف يا سامي إني حبيت اليوم دا بالذات في السنة علشانك، مع إني أكثر واحد عارف دا، يمكن يكون أصعب يوم عدى عليَّ في حياتي، يوم ما اتأكدت إن الكانسر يقدر يسرق مني حياتي، أعز ما أملك.

من بعد وفاة والدي بقيت أنت كل حاجة في حياتي، مش مجرد ابن خالتي المنعزل اللي معرفش عنه كتير.

مع كل برودك دا دايمًا كنت بعرف أسرق ثواني أتمعن وأتصور فيها مع ملامحك البريئة، بتخطف قلبي لوحدها من غير أي مجهود.

سامي متسبنيش لوحدى، أنا مليش غيرك، خليك بارد وكئيب وكل حاجة، كل حاجة أقدر أستحملها إلا بعدك عني.

عارفه إنك غريب، شارد طول الوقت، دايمًا مخبي كتير، كاتم ومخبي كل حاجة جواك من يوم ما اتولدت لحد دلوقتي ولحد ما تموت أتوقع،

لكن المرة دي في حاجة غريبة، حاجة مختلفة، مش هنكر إني خايفة... خايفة على سامي، لأول مرة حساه تايه، مش عارف حتى يمشي جنبي بتوازن، وكأنه مش عارف الطريق، أو كأنه أول مرة يروح المقابر من ساعة الكارثة.

حاساه خايف من حاجة، كأنه مترقب الموت في كل لحظة، كالعادة وجهه بارد غير معبر بس دا عمره ما منعني إني أحس بسامي.

-٦-

٤:٠٠

الرابعة صباحًا وقت مثالي لممارسة معاناتك مع الأرق، ثقل رهيب يتشبث بكل عظامي وعضلات جسدي،

يبدو أنه مازال القليل مني هناك، في الحلم أقصد، مازال وعيي مشتتًا بالكامل،

بصعوبة استجمعت قوتي، أجُر قدماي خلفي نحو الحمام، القليل من ماء الصنبور البارد قد يساعدني في جمع شتات نفسي.

بجسد شبه عاري ومع هذا الإرهاق، فقط تنقصني ابتسامة رضاء، وتقسم لي أني مررت بليلة حميمية سعيدة توًا.

دعه يا سامي!

ليس مرة أخرى، يبدو أن تلك الهلاوس لا تجد غيري لتعبث به، لست أنا الشخص الذي ينحني أمام هلاوس لا تتجاوز حلم سخيف، مع أول صفعة للماء البارد على وجههي اختفى كل شيء.

- أحلام مزعجة بحق.

بدأت تتضح رؤيتي شيئًا فشيء، لأتفاجئ بكدمات زرقاء، بل شديد الزرقة تغزو جسدي، بدأ الألم يزداد بعنف، ليتني لم أرها، على الأقل لن أشغل عقلي حول سر تلك الكدمات وهذا الألم الرهيب الذي يعتصرني.

- سحقًا لذاكرتي، لماذا لا أتذكر أي شيء، أي معلومة قد تفسر ذلك، كل ما أجده داخل عقلي قد لا يتجاوز تلك الهمسات.

"دعه يتملكك يا سامي"

أيه ده اللي بيتملكني؟!

أردفت بفزع

***

رغم كل محاولاتي الفاشلة، مع كل محاولة أعافر فيها للخروج من كهفي المظلم بائت بالفشل، بدأت بالاستيعاب أنه هناك كهوف على هذا الكوكب بدون مخرج.

مقبرة ختمت بالرصاص من زمن بعيد غطاها الزمن بغباره، وأقسم بكونه سيجرد التاريخ من ماضيها.

- سامي

- من ينادي؟ من هناك؟ فليغيثني أحدهم، صدى الصوت غير المنقطع حتمًا سيصيبني بالجنون.

- سامي.

- الصوت يتكرر مرة أخرى.

- يا بني فوق، الدكتور زفت هياخد باله.

قاطعتني سلمى بصراخها في وجهي، مع ملامح التعجب والتساؤل المباشر من عينيها.

:أمم، نعم؟!

حاولت استيعاب الأمر، كون الزمان والمكان قد تداخلا بعبث في عقلي.

- أنعم الله عليك.

قالتها بطريقة لا تخلو من الكيد النسائي.

تساءلت باستغراب.

- إحنا فين وجينا إمتى؟!

- حقًا لا أفهم شيء، أخشى أن عقلي احترق بسرعة، كلها بضعة أسابيع وأكون من مرضى العباسية، ذوي الحالات المستعصية.

- إحنا فين إزاي، مش أنت بردو اللي مصحيني بدري من النوم، ولا مش فاكر سعادتك، قال يعني سامي النشيط اللي بيصحى بدري ويضحك ويهزر على الصبح!

ثم احمرت وجنتاها فجأة مع غيظ بدى واضحًا على شفتيها.

- وكمان تعاكس بنات وأنا ماشية جنبك.

- أعاكس!

- قلتها بعدم تصديق.

- بقيت غريب أوي يا سامي، أقصد غريب أكترمن المعتاد.

قالتها سلمى محتارة، بينما نظرات المحاضر الجديد ترمقنا بغيظ، ما أصعب حقًا أن ترى مقت أحدهم في عينيه مباشرة.

رغم كل ذلك كل ما كان يشغل بالي حينها،

فين حازم؟

تفاجأت سلمى من سؤالي وكانه هناك مصيبة قد حدثت، لم تجد مفر من سؤالي ونظراتي تترقبها بحده.

في مستشفى الأمراض العقلية من آخر مرة هزقكك فيها، جاله صرع مفاجئ ودخل في حالة نفسية مستعصية، الدكاترة بيقولوا إنه تعرض لصدمة نفسية مرعبة وصلته للدرجة دي، دخل في حلقه صعب جدًا إن لم يكن مستحيل أنه يخرج منها.

عم الصمت بين كلينا تغاضيا عن شتائم الدكتور الجديد، التي تكاد تكون خارجة.

مازلت أفكر، وسأفكر حتى أفهم كل شيء أو ينتهي أمري بالجنون، وكالعادة لا أكف عن التفكير حتى تنطوي صفحة اليوم، لتظهر صفحة أخرى بنفس المقاس، لا تختلف في شيء.

***

مستشفى الأمراض العقلية.

تحدق عيناه في اللا شيء برعب، كأنه ينتظر الموت في كل لحظة، أظافره المتآكلة تحدثك عن مقدار توتره وخوفه، قلة النظافة والاهتمام تتضح على شعره الأشعس، شفاهه الصدأة تتحرك بتسلسل غريب، كأنه يحادث أحدهم بدون صوت.

- ميه... عاوز مية!

يصرخ بفزع، عيناه جاحظتان، العرق ينهمر من وجهه وكل أجزاء جسده الهزيل، يرتعش كطفل بلل ثيابه توًا، يبدو أنه قد بلل ثيابه حرفيًا، قطرات من الماء تتسلل بهدوء من أسفل عباءته البيضاء.

- اهدى يا حازم، صدقنا لما فوقت من الغيبوبة.

تشفق إحدى ممرضات المشفى بنظراتها عليه، بينما تمضغ لبانتها بقرف وإشمئزاز، كأنها تريد بصقها عليه،

تسحبه بقسوة نحو الحمام.

- يلا يا مجنون أنت، مش ناقصين قرفك على الصبح

تجره كأحد أطفالها، بينما ينفجر الآخر بالبكاء الطفولي.

- اقرفنا بقى.

تشد على أسنانها

-٧-

عباءة منزلية يتماشى لونها الوردي مع وجنتيها، التي لم يغزها الشيب بعد، أو على الأقل بشكل كامل،

أربعون سنة من التزاحم مع ذرات الكون، قد تكون أحيانًا كافية لتسلبك الحياة روحها.

- سلمى.

- نعم يا ماما، جيالك.

على عجلة قالتها سلمى بينما تتناثر مكونات مكياجها يمينًا ويسارًا.

- يلا يا بنتي هتتأخري.

- أيه يا حاجة مستعجلة على أيه، أنا جيت أهو.

تتسارع سلمى بخطواتها مرورًا بتزاحم غرفتها ووصولًا لإنذار الخطر الذي كاد ينفجر توًا "ماما نرفوزة على الآخر أنا عارفاها"

تزاحم من نوع آخر، تقترب سلمى بخفة نحو والدتها لتمنحها بعض الدلال، تقترب من وجنتيها لتباركهم بشفاهها القرمزية.

- براحتك يا هانم، اضحكي عليَّ أوي.

قالتها بينما احمرار وجنتيها وخجلها لم يفارقاها، قاطعت كل ذلك فجأة.

- روحي يلا صحي سامي علشان يفطر.

- حاضر.

أردفت سلمى.

***

شهقات مرتفعة، مرتعبة كطفل بلل سيبابة توًا يحاول توقع ما قد يصيبه من جبروت أمه، ترتفع الشهقات حتى أكاد أرى رعشات الطفل من مجرد صوته.

ينجرف المشهد يمينًا ويسارًا، رؤية ضبابية، الوضع غير متزن البتة، دماء متناثرة في كل مكان حولي، لونها القرمزي مع ضوء بدر القمر المتسلل من النافذة يحرك شيء بداخلي، ليست إحدى الغرائز البشرية بالتأكيد!

قطرات لزجة أسفل قدمي دافئة بالقدر الكافي؛ لإدراك أنها طازجة، يبدو أن أحد وحوش الغابة قد وجد غذائه لهذه الليلة المرهفة،

أشعر بخنقة شديدة تكتم أنفاسي كأن أحدهم يتملك من عنقي، تكاد تنفصل قصبتي الهوائية عن عنقي، حتمًا بدأت أفقد الوعي.

بعد كل الظلام الذي بدأ يتسلل لعيني ببطئ وثبات، سحقًا قدما الطفل الصغيرة تلك لم تعد قادرة على حملي، وكأني عدت طفل لوهلة.

- سامى، اصحى يا سامي

تقولها سلمى من خلف الباب بنفاد الصبر.

ذلك المغفل دائمًا ما يفعل ذلك معي، يتركني أمام بابه عالقة بين شوقي وقلقي، دائمًا ما يظهر فجأة بدون سابق إنذار، وكأن شيء لم يكن.

- تمام جدًا يا سامي.

صوت منخفض وأعين تكاد تزرف دمعًا، وقدمان تتسللان للخلف.

- لا فائدة.

أردفت بينما تدفعها خيبة الأمل ويجذبها الخوف، خطوة واحدة قد تكون الفيصل، لكن السكون أحجية من نوع آخر

- ليه كدا يا سامي؟! ليه تعمل فيَّ كدا.

قالتها سلمى بحنقة، بينما بدأ يسيطر عليها الشك، من قال أن الشك لا يقتل!

***

في الجهة الأخرى

الرؤية أصبحت قاتمة للغاية، ظلام مشئوم، تلك الصفة الوحيدة المناسبة له.

"سنين وبتجري،

روح وبتعدي

من ضفة لضفة

بتشوف النور بيلمع،

حاسب كيد الغريب

دا ملوش حبيب"

- من هناك؟

يبدو أن الشيطان لا يأبه بأمرك يا سامي أيًا ما يكون، لكن هذا الصوت النسائي لا يقل خبث وريبة عن الشيطان!

أعلم أنه تنقصني خطوة واحدة عن الجنون، لكن لم أتخيلها يومًا بهذا القصر.

أنفاسي تشق صدري للخارج كأنها هاربة من أحد الوحوش الضارية، أحاول جاهدًا مهاودة نفسي ومحاولة السيطرة على أنفاسي، تبًا لكل هذا.

بدأت أنفاسي تقل شيئًا فشيء في نفس الوقت يتلاشى تركيزي، من سرعة أنفاسي إلى مرحلة لا أعلم نهايتها،

ألتقط أنفاسي بصعوبة بالغة، الباب صوب عيني بينما أنا طريح على الأرض، الرؤية تصبح قاتمة أكثر، عتمة تشقها عتمة، لا شيء غير ذلك.

- سلمى!

بصوت متقطع، تلك الكلمة الوحيدة التي خطرت ببالي، كأنها الملاك الحارس الذي ظهر فجأة في ظلمتي، والكلمة الوحيدة التي استطعت تلفظها قبل أن يسود كل شيء.

- سلمى

بصراحة مبقتش قادرة أفهم الحياة، واللي أصعب عليَّ من الحياة في فهمها هو سامي، حياته، كل حاجة متعلقة بيه

كالعادة قافل على نفسة، مختفي وصامت، يختفي بالأيام في شقته أو حتى براها ويظهر فجأة من العدم.

مش عارفة هل أنا بدات أتعود فعلًاولا لأ؟ بس اللي فاهماه إني معدتش بقلق عليه زي الأول، دا روتينه وحياته وعمره في يوم ما هيغيره، بس المرة دي مختلفة عن كل مرة، المرة دي بالذات قلبي مش مستريح، مش عارفه ليه مش متطمنة يا سامي.

مش متحركة بقى ولا ماشية يا سامي إلا لما تخرج وأشوف وأتطمن عليك، واللي يحصل يحصل.

فجأة سمعت صوت غريب ورايا، صوت باب بيتفتح، معقوله يكون سامي! أيه الهبل دا هيكون مين غيره يعني.

***

تلتفت سلمى بكل لهفة بينما يخبئ لها القدر مفاجأة، صدمة من نوع ما.

تراه زومبي متجمد بجوار باب الشقة كأنه أحد المومياوات الفرعونية العتيقة قد عادت للحياة توًا، بدأ يرتجف بطريقةتسير الرعب بينما تتراخى عيناه ببطئ، عيناه التي أفزعت سلمى خوفًا.

- سامي ..عينك.. دم!

عجز لسان سلمى عن التلفظ بأي شيء عدا تلك الكلمات المتقطعة غير المفهومة، بينما ترتفع ضربات قلبها بجنون، وعينان مجحوظتان قد تجمدتا، توًا أمام هذا المنظر المرعب.

عيناه تدمعان دمًا، منظر مهيب من أحد أفلام الرعب التاريخية، أعين حادة شاردة، تحكي أساطير وقصص مؤلمة، مجرد نظرة واحدة منها تقبض قلبك وتكاد تسلبك روحك.

فقط ثلاث ثوانٍ من النظر لتلك الزمردة الحمراء الدموية، في جوف عين سامي كافية لسلبك عقلك، لتحجز لك أحد المقاعد الكهربية الفاخرة في مستشفى العباسية.

ثلاث ثوانٍ فقط، لتلامس أبواب الجحيم، الأمر برمتة يحدث في تلك الثواني الضيقة،

ثانية مع الألم كأنك وأخيرًا تحقق حلمك بالرجوع بالزمن للماضي، في نفس الوقت تتحقق أكبر مخاوفك لتعيش أقسى لحظات حياتك مرة أخرى، مع كل ذرة ألم كانت وليدة تلك اللحظات.

وثانية مع الضياع والشرود وثانية أخرى مع اللاشيء،

مسكينة يا سلمى، قلبك الضعيف لن يتحمل أكثر من ذلك.

دقات الساعة، تكتكات الباب. رجفات أسنان سلمى... إنها مرعوبة بالتأكيد

قدما سامي ما عادتا قادرتان على حمله بعد الآن، مجرد لحظات كانت كافية لإنهيار كل شيء، سامي يسقط بعبث كجثة هامدة مباشرة باتجاه سلمى، بسرعة وبحركة لا إرادية تجذبه سلمى نحوها؛ ليستقر على كتفها اليسرى فوق قلبها، كأنها حملته بقلبها وليس بيديها، بينما تجمدت باقي حواسها فزعًا.

– ماما الحقيني! سامي بيموت.

صارخة بفزع بينما تزرف عيناها الدمع بغزارة، لتكون بداية بكاء هيستيري لا ينقطع.

-١٠ -

شوقٌ وليالٍ ضحلة، ذكريات لا أجد فيها فيها أي رحمة.

يشق الضوء عيني ببطء، جفناي ملتصقان كما تلتصق رئتي بعظام قفصي الصدري،

أحيانًا أرى النور، وأحيانًا أرى النور تتتوسطه التعاسة، ملامح الحزن والأسى تحتل وجه خالتي الذي بالكاد أراه، أخبرني ما قد يكون أتعس من ذلك.

- آه، تبًا كيف يتحمل جسدي كل هذا

الألم، تسعين نيوتن قوة جبارة، فما بالك بألف نيوتن من القوة هدفها تحطيمي.

- إزيك يا ميرفت.

قلتها بثقل محاولًا التقاط أنفاسي، محركًا رأسي يمينًا ويسارًا كأن الأكسجين اللعين يحاول الهروب بعيدًا.

نظرات ترقب، همهمات عجوز لعين تزرف الهواء كمدخن شره خرج توًا من أزمة قلبية.

كلها علامات لا تشير إلا لاتجاه واحد "كارثة"

ميرفت ليست من الشخصيات الضعيفة، قليل القليل ما قد يؤرقها، لكن ماذا حدث لتصل لهذه المرحلة النادرة.

صوت الرعد يؤرقني، بريقه المندفع من النافذة بجوار السرير يكاد يصيبني بالعمى، الساعة تتأرجح على الحائط، بينما لا أجد لعقاربها مكان فيها، فقط صوت أنين الكرسي الخشبي تتصاعد تزامنًا مع اهتزاز أرجل ميرفت بتوتر

تبًا، الساعة الثانية عشرة منتصف ليلة شتوية باردة، عرقي ينسال من على جبيني بدون توقف، قطراته الدافئة تسلل لعيني كالأفعى ببطئ وهدوء، ثم تداهمك فجأة على غفلة بحرقة شديدة.

– آه، قلتها بهدوء كعاصفة مكتومة حبيسة خارج نافذة غرفتك، بينما تروق لك الجلسة أمام المدفأة الموقدة، مع إحدى رواياتك المفضلة.

– سامي عامل أيه يا حبيبي؟

لا أعرف حقًا ما يكون ذاك السحر الغريب في أيدي النسوة، لمسة حريرية ناعمة، كافية لصنع هذا السحر، مجرد لمسة قد تخمد جحيمًا داخلك وتوقف عاصفة هوجاء.

- توقفت الهلاوس وتوقفت العاصفة، أرفع حاجباي بثقل محاولًا إدراك أن كل شيء مجرد هلاوس غير حقيقية.

تداعب يدى خالتي الحنونتين خصلات شعري بلطف، بينما يلامس جبيني قلبها ويشعر بنبضاته المضطربة، من كثرة الألم والخوف الذي لحق به.

لم أجبها عن سؤالها بعد، وليس لدي ما أطمأنها به أو أخبرها إياه.

- فين سلمى؟!

هذا جل ما يشغل خلدي، آخر شيء رأيته هو صدمة ورعب يتجسد على هيئتها.

تسحب خالتي يدها ببطئ بعد أن ارتعشت فجأة.

- سلمى؟ كويسة هيكون مالها يعني.

أردفت بتوتر.

- دي مش إجابة، فين سلمى قولتلك؟!

أحاول جاهدًا مراوضة ألمي والنهوض من السرير، ساعداي متهشمان سحقًا لذلك، عيناها مازالتا ترمقانني بشدة، وجه شاحب أراه يظهر فجأة في بقايا مرآة تستقر على الحائط أمامي.

ثمرة تين طازجة تشكلت بكل ألوانها، هذا هو الوصف المثالي لعيناي على ما أظن، في تلك الحالة أتأرجح بخطواتي يمينًا ويسارًا مستندًاعلى الحائط بإحدى يداي، بينما الأخرى تتحسس بتلقائية الألم الذي ينهش في رئتي.

أدخل الغرفة لأتفاجأ بما أراه، سندريلا طريحة فراشها، وظل شارد يمكث بقربها متشبثًا بيدها.

- أيه اللي حصل لسلمى يا عبير؟

تحاول الخادمة السمينة والمعتوهة الكبيرة حبس دموعها، بينما تجفف بياقتها المتهالكة ما تسلل هاربًا من عينها دمعًا.

- منه لله اللي عمل فيكِ كده.

تزرف الهواء بينما تتجنب النظر لعيني باشمئزاز، ذلك قبل أن تترك المشهد وترحل بهدوء،

عيناي تتحدثان، تلمعان كقمر يودع بدره نحو محاقه، لا أعتقد أن أستطيع حبس دموعي أكثر من ذلك

- سلمى اصحي بقى، إنتي بخير؟ سلمى كفاية نوم.

أقترب منها ببطئ، قدماي باردتين كالثلج، لايزال ملمس الأرض الباردة مخيف، أحيانًا قد تفضل الابتعاد عن الحقيقة، تفضل عدم التأكد من شيء قد تحقق بالفعل.

- سلمى؟!

ترتجف حروفي، وأعصابي مازالت باردة، اقترب نحوها ببطئ، ماذا حدث؟ شَرطة، عندما تتملك خوفك وتقترب من الحقيقة، في تلك اللحظة فقط يتضاعف خوفك.

صداع نصفي ينهش في خلايا عقلي، متى يتوقف كل ذلك؟!

بدأت حقًا أفقد التركيز، عملية استرجاع الذكريات بدأت توًا، ليس وقتًا مثاليًا بالمرة.

بدأ الألم يتسلل لعيناي مرة أخرى، انفصل عن كل شيء فجاة.

– الدكتور قال إنها دخلت في غيبوبة؛ بسبب صدمة شديدة اتعرضت ليها.

أردفت ميرفت فجأة، منذ ومتى وهى هنا؟!، مازالت تراقبني بصمت،

تتقدم بخطوات متهالكة نحو الكرسي الخشبي الهزيل المجاور لسلمى، تمسك بيدها اليمنى برفق، بينما تحاول مواراة عينيها الدامعتين عني، كالعادة كما أعرفها ميرفت، دائمًا قوية، أو دائمًا ما تحاول أن تُبدي ذلك، بدأت تستجمع شتات نفسها لمواجهة من نوع ما.

– تعرف يا سامي أبوك وأمك ماتوا إزاي؟

– سؤال غريب تفاجأت به من السمينة المعتوهة في وقت غير مناسب إطلاقًا، هل تنكر الآن معرفتها بالحقيقة التي أخبرتني بها شخصيًا، نظراتي تواجهها بكل وضوح وحدة.

– تقصدي أيه؟!

تحول نظراتها وكلامها الحاد مباشرة تجاهي.

– أقصد إن أختي الله يرحمها وأبوك مماتوش في حادثة عربية، ماتوا مقتولين يا سامي قبل ما تولع الشقة باللي فيها، حسب كلام الطب الشرعي.

تكمل في ظل صمتي اللاإرادي.

- في حاجات غريبة بتحصل من زمان في شقتكم؛ علشان كدا حاولت أبعد أمك عنها وبعد موتها حاولت أقنعك تبعد عنها، لكن دماغك جزمة زي دماغها بالضبط، بتعمل اللي في دماغك، حتى ساعة الحريق طلعناك من قلب النار بالعافية.

مسألتش نفسك يا سامي ليه النار ولعت في كل حاجة في الشقة، وأنت طالع من قلبها من غير ولا خربوش واحد

- بتقولي أيه؟!

قاطعتها بعصبية مع شتات فكري الذي بدى واضح على معالم وجههي، عقلي توقف عن التفكير بينما تتابع ميرفت قصتها الخيالية.

- أمك وصتني عليك يا سامي وكان لازم تعرف الحقيقة سواء عاجلًا أم آجلًا، لازم تواجه الحقيقة يا سامي، أنت خلاص بقيت راجل ولازم تواجه مشاكلك وتحلها بنفسك.

بدأت تتلاشى الأصوات شيئًا فشيء، ويحتل مكانها صوت صفير حاد مزعج، لا أكاد أستوعب صدمة حتى تتبعها الأخريات بسرعة، وكأن عيناي بدأتا بالعمل بطريقة منفصلة، كل شيء أراه مزدوج ومتداخل حتى تلك الهترات القادمة من ميرفت والمستمرة بدون انقطاع، صدى صوت غير مفهوم في مؤخرة رأسي،

لأول مرة أشعر بأن الزمن يدفعني للأمام عكس ما كان يجمدني في الماضي، كل شيء بدأ يسير بسرعة.

أعدو بسرعة للأمام تاركًا كل شيء خلفي، قدماي تدفعاني لاإراديًا نحو الأمام، أكاد تقريبًا أصطدم بكل شيء أقابله، لا آبه لأي شيء، كل ما يشغلني هو شيء واحد فقط، لماذا أهرب؟ بينما أدرك أشد الإدراك أن الهروب لا يحل أي مشكلة، لكنه كان خيار مناسب لي الآن.

-١١-

في مكان ما.

"أركض للأمام بينما تلاحقني الذكريات والآلام من خلفي،
قد يكون الهروب ليس اختياري، لكنه بالتأكيد اختيار
القدر"

– الهروب قدري، أردفت بيأس.

– وما الذي يجبرك على الهروب؟

سؤال قادم من أحدهم.

:مش عارف، صدقني مش عارف

أجيب بوضوح بينما تتأمل عيناي سقف الغرفة المتهالك.

وأيه اللي يأكدلك إن كل اللي حصل دا حقيقة.

اثبتلي العكس!

قاطعتة بتحدي ثم تابعت بحنقة وعينان شاردتين فحقًا لا أبالي بهرائه.

وأيه اللي يخليني أصدق قصتك الخيالية دي؟ أو الأسطورة على حد قولك.

- سامي يا ولدي، طول ما الحب موجود فهناك أساطير وقصص تاريخية عن الحب، وكذلك طول ما الألم موجود فالأساطير والحكايات لا مفر من وجودها.

- وأنا أيه علاقتي بالموضوع؟

أسأل بتعجب، حقًا لا أفهم شيء، الأمور تحدث بسرعة أعجز عن استيعاب أي منها

بصمت، تحدق عيناه بي بغرابة، يستعد لقول شيء مثير أجهله، هل حقًا سيجيب، أو أيًا كان ما سيقوله سيكون ذا فائدة، لا أعلم!

- لأنك الوريث، وريث الألم والقوة، المساعد الأول والمطيع لأميرة الظلام "ماري دوسا"

يقوم فجاة وبهدوء من جلسته، بينما يهندم ثوبة الغريب غير المألوف بكبرياء، حمل عمامته من على الطاولة، بينما يغادر أردف.

قدامك خمس دقايق بالتمام والكمال، يا تخرج من المقبرة، يا تفضل محبوس فيها طول حياتك؛ وتخسر أعز شيء عندك.

وإفتكر يا سامي "عينك هى الحل".

يغادر فجأة بينما يسود كل شيء.

-١٢-

صفير سيارة الإسعاف يحلق في الأرجاء، معلنًا أحد حالات الطوارئ شديدة الخطورة.

ترتفع شهقات بكاء الأم مع نزيف حاد للدموع من أعينها، كأنها تبكي دمًا وهى تحاول بكل طاقتها وأناملها الهشة التشبث بسيارة الإسعاف، بينما يحاول المسعفون إبعادها عن السيارة.

- بنتك هتبقى بخير يا أمي صدقيني، متضيعيش وقت على الفاضي، كل ثانية في مصلحة بنتك.

- هنسبقك على المستشفى، وبنتك دي في عنينا،

أردف أحد المسعفين بينما يتسارع في إغلاق الباب في وجه قلب أم متهشم، ومشتت، معلنًا الانطلاق

- قلبي معاكِ يا بنتي، تتلفظها ميرفت بصعوبة قبل أن تنهار فجأة بينما التقطتها يد أحدهم بسرعة.

تتجاوز سيارة الإسعاف الطرق بسرعة بينما يحاول المسعفون في الخلف تهدئة ذلك الملاك،

تنتفض سلمى بشدة وسط تشنجات لا تنقطع، كملاك أصابه مس شيطاني، وما أصعب من أن يكون أقرب شخص لقلبك هو الشيطان بنفسه.

-١٣-

- أهلًا سامي.

ابتسامة مغرية وشفاة لامعة، حقًا إنها مثير لدرجة قد تفقدك السيطرة على غرائزك.

- قرب يا سامي، متخفش.

ملكة سبأ تتكأ على عرشها، لكن لا أرى أي تماثيل أو آلهة ولا حتى الشمس، كل ما أراه هو الظلام والعتمة التي تغزو ذاك الصرح الشاسع، جميلة لدرجة لا تتغاضى عنها أي عين بشرية، ترمقها عيني بإثارة وبطريقة لا إرادية كأنها تسحرني بطريقة ما.

يكسوها اللباس الأسود بينما يظهر التناقض المغري بين الأسود وبشرتها البيضاء النقية، تقارب كثيرًا أن تكون شفافة،

وسط كل ذلك لا تجذبني إلا قلادتها الزمردية.

- مش هتيجي، خلاص أجيلك أنا؟

كل ما استطعت رؤيته هي ابتسامة خبيثة ثم اختفت فجأة ليحل مكانها الفراغ،

- اختفت.

أردفت بتعجب وبعض الفزع والخوف الذي لم أستطع إنكاره، أقل من ثانية لأسمع صوتها خلف أذني.

- هنا يا سامي.

ألتفت لأراها أمامي بينما شفاهها تكاد تلامس أذني، آلاف الأسئلة تجول بخلدي، لساني عاجز عن ذكر أحدهما

أين أنا، من تكون تلك الشيطانة المعتوهة؟ وكيف وصلت لهنا؟ والكثير من الأسئلة الأخرى.

عيناها الواسعتان مازالتا ترمقانني باهتمام وإعجاب، وشفتاها لا تقل إثارة عن ذي السابق، لماذا أشعر أنها تسمع خواطري وكأنني أفصحت لها عنها دون أن أحرك ساكنًا.

- واحدة واحدة يا سمسمتي، هجاوب على أي ولا أي.

- إنتي سمعتي...

لم أكمل جملتي بعد حتى اسكتتني بأصبعها الذي أخرصني بمجرد لمسة واحدة على شفاهي، أصابعها دقيقة واظافرها طويلة بانسيابية، للحظة شعرت أنها تستهويني لالتهامها.

- آه سمعتك، كل أفكارك وأي حاجة بتدور في عقلك الصغير مجرد كتاب مفتوح قدامي، فمش ضروري خالص تخبي حاجة عني، أو تفكر في حاجة تزعلني منك، تقرص وجنتي بيدها الحريرية بينما تحادثني بصوت عالق بين الصوت الأنثوي الهادئ وفحيح الأفعى.

أزيح ببعض الكلمات الساخرة القليل من التوتر.

- إنتي بقى اللي عاملة الرعب والضجة دي.

أنفي يتسع باستنكار بينما يندفع الهواء للخارج دفعة واحدة، تتحول ملامحها فجاة بينما مازالت قادرة على الاحتفاظ ببسمتها، ثم تختفي من أمامي فجأة لتستقر مرة أخرى على عرشها، تأخذ نفس هادئ.

- أنا مجرد رسول يا سامي، وأنت مجرد عبد بيتبع الأوامر.

أردفت بسخرية بينما تتابع:

أشوفك على خير، لكن قبل ما أمشي لازم أعترفلك، عينك جميلة أوي، مش عارف إذا كنت هقاومها كتير ولا لأ. تصبح على خير يا سمسمتي

اختفت فجأة، وكأنها لم تكن موجودة بعد أن طبعت قبلة أسفل وجنتي قرب شفتاي.

***

سعال حاد ينهش كالكلب المسعور في أحشائي، أخشى أن هذا ما يسمونه ذبحة صدرية، لكن لا أظن أن الحال وصل بي لهذا السوء بعد،

يداي تتحسسان أرض صلبة باردة تكسوها طبقة دقيقة من الأتربة، يبدو أن تلك الأتربة الملعونة هى ما تعبث في رئتي الآن.

أحاول النهوض بكل الطرق، يبدو أن إرادتي أضعف بكثير من ذاك الألم، الذي يعتصر قلبي ويهشم عظامي، سحقًا للقدر عندما يحتجزك في مقبرته، دقيقة كاملة في محاولة يائسة لفك قفل عيني الموصدتين، بعد عدة محاولات فاشلة أرى أخيرًا، وليتني لم أفعل.

أرى كل شيء لامسته يداي، أرى أن كل ما يحيط بي حقيقة وليس مجرد حلم، لا يكذب حدسي في كل الأحوال.

اعتادت أمي دائمًا محادثتي عن الأساطير، لكني لم أتخيل في يوم أن أعيش إحداها.

مقبرة! الجدران الحجرية العتيقة والرسومات المحفورة بدقة وبراعة، كل ذلك لا يخبرك أنها قد تكون أي شيء آخر غير ذلك.

اعتدت دائمًاعلى الوحدة، أربعة جدران لا يزداد أو ينقص ركن واحد، ما الجديد في ذلك، فقط حوائط شديدة الارتفاع ونقوش ورسومات غريبة في كل مكان، عيناي تجوبان في الأرجاء بينما يحاول ساعداي مساعدتي على النهوض.

رأيت الكثير من الهياكل العظمية في الأفلام وزرت أيضًا المشرحة عدة مرات على أمل أن أجد ما يثير فضولي، أو حتى الرعب في قلبي، لكن كالعادة أتعجب شخصيًا من برودي.

أنظر لفظلات الجثث الآدمية بعدم اهتمام، لا أبالي من يكون هذا ومن يكون ذاك، على كل حال هم سواسية الآن، لن تستطيع التفريق بين الغني والفقير، وصاحب السلطة والمستضعف من نظرك لبقايا عظمة الترقوة خاصته، لا أرى إلا جماجم مبتسمة ابتسامة عريضة ولا أريد أن أعبث بها، على كل حال قد أنضم لهم في نهاية المطاف.

ظللت ساكنًا لفترة كل ما أفعله قد لا يتجاوز تحديقي في كل تفصيلة حولي، في كل ما نقش على الجدران قد تكون خريطة النجاة من مقبرة بدون أبواب.

مازلت أدور حول نفسي ببطء، لم يوقفني إلا صوت رنين قطعة معدنية يبدو أنني دهستها توًا.

أحول نظري ببطئ لأرى شيء يبدو أنه ليس بمكانه الصحيح.

إنه خنجر.

-١٤-

بين خفقات قلب أم ودعواتها، وبين سجدة عجوز يتألم فيها، وبين أنفاس حرة لا أنفاس مقيدة لا تستطيع التقاطعا، بين هذا وذاك بضع لحظات قليلة صادقة.

تختفي فجأة الجدران القديمة المتهالكة ورائحة الغبار المجذعة والصمت القاتل أيضًا، يختفي كل ذلك فجأة وأرى مشهد آخر، كأنني انتقلت عبر الزمان والمكان في ثانية واحدة لا ثاني لها.

حوائط بيضاء، طرقات نظيفة خالية، انعكاساتي على الأرضية واضحة، أرى نفسي فيها كمرآة.

بكاء ودموع حبيسة بيد أحدهم، ميرفت تجلس فوق أحد الكراسي على أحد جانبي الغرفة، بينما تبكي بحرقة وصوت مكتوم

لماذا تبكي وماذا قد تكون فاعلة في قسم العناية المركزة بحق.

- سلمى؟!

لم أتوقف حتى للتفكير بينما أتجاوز كل شيء يصرخ "ممنوع الدخول" وأندفع بكل همجية وسرعة لأجد نفسي منتصف الغرفة.

أجهزة طبية تملأ المكان، ملاءة بيضاء تحتها جثة هامدة، وبضعة أنفاس أستطيع سماعها وحصرها من هنا.

بين الصمت والألم وملامح السعادة، التي ترتسم بهشاشة على وجهها الشاحب

عجبًا لتلك الفتاة، أشعر أنها تحاول محادثتي، كأنها تقول

"متقلقش يا سامي أنا بخير"

تتقطع أحلام يقظتي فجأة أمام صفير مزعج قادم من أحد الأجهزة الطبية المتصلة بها، تبدأ سلمى بالانتفاض بينما فزعي يقيدني.

- الحالة رجعت تاني يا دكتور

تصرخ إحدى الممرضات بفزع مناجية الطبيب المتابع للحالة، في حين تدق الأرض خطوات حذاء الطبيب السريعة والمتلاحقة.

يصرخ الطبيب

- جهزي لي حقنة مهدئة بسرعة.

زاد الصخب فجأة في كل مكان وتداخل أصوات الأقدام والأجهزة ثم الصمت التام.

***

- أنا فين وأيه اللي بيحصل، وفين سلمى؟!

أحادث نفسي بصوت عالي على أمل أجد مجيب لأسئلتي، حقًا تلك العتمة الوحيدة التي تحتاج لمرشد وليست هذه المقبرة الصماء.

-١٥-

سكين نقش على كلا جانبيها، نقش غريب لعين باردة وشاردة،

عدة خربشات غريبة على الجدران والخنجر، أين الباب في كل هذا، لا أرى أي شيء إلا فتحة صغيرة جدًا في الأعلى ليست إلا مصدر للضوء، في كل الأحوال لن أبلغها مهما حاولت

لا وقت لدي لأي شيء، ولا حتى للتفكير، يجب أن أذهب لسلمى الآن، سحقًا للقدر ولأميرة الظلام تلك وللعجوز ذا العمامة الغريبة.

الوقت يمضي والدقائق تمر بسرعة غير معتادة بالمرة، متى ينتهي كل ذلك؟!

بعد لحظات من التوتر أشعر أنها قد لا تتجاوز سوى دقيقة واحدة، كما لو أن الزمن يمر ببطئ والأحداث هى من تجري بسرعة، دقيقة أشعر فيها أن قلبي قد جفت أوردته من الدماء، والأكسجين تسلل هاربًا من رأسي.

طوال الوقت أحاول تجميع معانٍ لما نقش على الحائط، على الأقل هناك غرض من كل تلك الرسومات، أحيانًا أرى نقوش ذات معنى وأخرى بدون، كأنها قصة أو أسطورة تاريخية دونت لتبقى وتخلد.

سأفعل أي شيء، أي شيء يخلصني من هذا وينقذ حياة سلمى

للحظة كأن باقي ما نقش على الحائط قد زال عدا عدة نقوش قلة، أراها كمصباح أنار فجأة وسط العتمة، أومضت لوهلة ثم انطفأت مرة أخرى

"خنجر مطابق لما بيدي وعين بمقلة مشقوقة"

ظلت أردد ذلك بصوت منخفض بينما عيناي ترمقان الرسمة الأخيرة بحيرة، نقش ظهر فجاة من العدم، يبدو أن الحيرة سترافقني لفترة

: يقصد إيه المعتوه اللي رسم الخرافات دي.

أردفت بعصبية بينما أرمق الخنجر في يدي باحتقار، ما هى إلا لحظات حتى أقرر أن أجز عنقي به وتنتهي تلك الأحجية الهزلية السخيفة

- أعمل أيه يا سلمى، أرجوكِ فوقي وكوني جنبي وإرشديني زي كل مرة بقع في موقف صعب.

***

- النبض وقف يا دكتور!

تصرخ إحدى الممرضات في الغرفة بفزع وخوف، كأنها ولأول مرة تشهد سكته قلبية

- جهزي صدمة كهربية بسرعة.

يحاول الطبيب السيطرة على أعصابة بالقدر الكافي للتعامل مع الحالة.

صدمة كهربية تتبعها أخرى أشد بدون أي نتيجة، فقط جسة هامدة تنتفض مع كل صدمة وتسكن كما كانت

- كأنه خنجر الخلاص

يردف سامي بينما يرمق الخنجر بهدوء، يقلبه في يده يمينًا ويسارًا ويحول نظرة للحائط بين الفينة والاخرى"عينك هى الحل"

ترد فجأة كلمات العجوز في رأس سامي، تجوب في ذهنه تود أن تجد مستقرًا أو حتى مخرجًا، كأن الشيطان يهمس بعقلة.

- أخشى أن يكون ذلك صحيح.

يردف سامي ببرود يتملك تفاصيل وجهه، وخوف يتخبط بقلبه بينما يشاهد انعكاس عينه اليسرى على أحد جانبي السكين، حمراء كزمردة وهيئة شديدة الغرابة

انعكاس عينه يطابق تمامًا ما حفر على الخنجر، كانه قد صنع خصيصًا له!

- تبًا.

يبدو أن الخوف تمكن منك أخيرًا يا سامي.

***

شحنة عالية، كمحاولة أخيرة لإرضاء ضمير الطبيب

ترمقة الممرضة بخوف، يصرخ.

- بسرعة معندناش وقت

بدأ يختلط كل شيء في تلك اللحظة، نظرات اليأس في أعين الطبيب، وملامح التأثر على الممرضة، ودموع الأم المسكين المندفعة كالشلال، ودماء سامي!

فجأة، بدون مقدمات يبدأ الجهاز بإصدار صوت مأممًا على كلام الممرضة.

- سلمى رجعتلنا ي دكتور

الدكتور مبتسمًا : تابعيها لحد ما تفوق ومتسبيهاش لحظة، لو فيه أي جديد ناديني بسرعة

- ١٦- الأخير

القمر بدأ يدنو مني، حقًا الرؤية بعين واحدة ليست مرضية بالمرة.

صحراء لا أرى لها نهاية، فقط بعض المساكن المهجورة المتهالكة وسط رمال الصحراء، تدنو من بحيرة صغيرة تأخذ الغربان منها مسكنًا، مع كل ذلك فالأمر أفضل بكثير من مقبرة صماء تحت الرمال

قدماي الحافيتان تسلكان دربًا أعرج في الرمال، إنها ليست بتلك الدرجة المؤذية من الحرارة، فقط هى دافئة، الشمس قد واربت توًا،

أشعر بقدماي تصرخان من شدة الألم، منذ متى وأنا أمشي، لا أعلم لكن يبدو أنه ليس بالوقت القليل، من تعامد الشمس حتى انحنائها أمام تجلى البدر.

الدماء تتسل بهدوء وبدون توقف من عيني سالكة دربًا لها بين أصابعي رغم كل محاولات احتجازها بيدي،

لم أخشى فقد عيني بقدر ما خشيت حقًا فقد كل دمائي قبل تشبثي بطوق النجاة هناك. رغم كوني أخشى أن يكون مجرد سراب،

كجندي مجروح وسط الصحراء قد تمكن منه الظمئ يتعلق بوهم على الأقل في النهاية يبقى أمل

لا أرى أي شيء بالعين اليسرى، فقط ظلام داكن وقاتم، الآن عرفت ماذا يرى الأعمى،

لا شيء، يرى فقط اللا شيء.

"في مكان ما قد يرى شخص النور مرة أخرى، وآخر يرى الظلام ويحبسه داخلة للأبد، أحيانًا لتنقذ أحدهم قد يتوجب على ذلك أن يزيد من ألمك"

يبدو أن سلمى أفاقت، بسمتي وسعادتي تلهيني عن التساؤل كيف أرى سلمى من هنا، وكيف أرى شيء بعين لم تعد موجودة ونور قد انطفأ داخلها

الدوار بدأ يتسلل لرأسي والدماء بدأت تنفد من أوردتي بحق، بينما مازالت أعين سلمى الساحرة تشغلني عن كل شيء.

أرجوكِ يا سلمى لا تلقي علي العتب، لأنني لست بقربك في تلك اللحظة بعد نجاتك من نهاية قد تأججت باقترابها.

أعدك إن نجوت فلن أضيع أي فرصة قد تجمعني بك مرة أخرى، أعدك يا سلمى سأنجو وأكتشف تفسير واضح لما يحدث لنا

وتلك العين الملعونة لا أعرف لماذا كل شيء مؤلم يتعلق بها وكل مشكلة وكل ما هو غامض، كانت حياتي غامضة كئيبة وكنت راضي بذلك، لكنها الآن ليست إلا جحيم.

أخطو ببطئ خطوات هشة ضعيفة، أقسم أن قلبي يكاد يتوقف في أي لحظة ومازلت أتأمل الخنجر الملطخ بدمائي في يدي المرتعشة، أجده يتوهج تحت ضوء القمر، حتى انعكاس البدر به دامي تمامًا، سحقًا لكل ذلك وللعين اللعينة التي دمرت حياتي.

"تبًا لكل الألم الذي مررت به، دمر حياتي وحياة غيري،

ليتني كنت أقوى، او ليتني كنت ضعيف لألتمس شفقة

القدر، سحقًا لعين كأنها عين من الجحيم"

تمت.

شكر خاص

أ.عصام الشرقاوي

الكاتب: علي سيد علي

رحمة محمد، صاحبة الفرشاة الحريرية

أحمد شلبي، شهاب منصور، أصدقاء نجاحي

أبو مريم، القهوجي العسول

الكاتب:عمر النجار، أ.عائشة مكي

ولكل من دعموني وشجعوني بإخلاص